

الأمين العام الأسبق للجامعة العربية صاحب الذاكرة الأكثر مرارة

الشاذلي القليبي

رجل الثقافة الذي ظلمته السياسة



الجمعي قاسمي
صحافي تونسي

● تولى أول تونسي لمنصب أمين عام الجامعة العربية أدخله بسرعة في دائرة الضوء، بالترام مع بروز ● علاقة القليبي ببورقيبة تطوي على تفاصيل وأسرار، من بينها رسم الخطوط العريضة لخطابات الرئيس، حتى أن الكثير من التونسيين قارنوا تجربتهما الفئانية بعلاقة ديغول ومالرو.

العربية، لتنتهي بذلك مسيرة رجل بدأ مُهماً بالثقافة والفكر، وكان يعتبر الفعل الثقافي أداة مهمة في ضمان حيوية المجتمعات، لينغمس في السياسة حتى التهمته كواليسها. ولكنه مع ذلك، كان كثيراً ما يُرد أنه لم يندم على توليه الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، التي مكنته من معرفة العديد من القادة والزعماء العرب الذين طبعوا التاريخ العربي المعاصر. رحل القليبي ولم ترحل ظلاله على عمل الجامعة العربية الذي أنهكه، والذي لا يزال متعراً حتى اليوم، بفعل واقع عربي مشرذم "يوشك أن يكون الدواء فيه أشد من الدواء" كما قال القليبي في نص استقالته ذات يوم.

سعى القليبي طيلة ولايته إلى محاولة تكريس نهج الحوار، لكنه فشل في ذلك، لتكون القمة العربية الطارئة التي دعت إلى عقدها مصر يومي 9 و 10 أغسطس من العام 1990، بمثابة اللحظة الفارقة التي دفعته إلى الاستقالة، حيث اجتمع القادة العرب في تلك القمة للنظر في غزو العراق للكويت.

وبدا منذ البداية أن القادة العرب الذين شاركوا في تلك القمة التي تغيب عنها الرئيس الراحل صدام حسين، يتجهون نحو إدانة الغزو العراقي للعراق، حيث فرض رئيس القمة آنذاك حسني مبارك على المشاركين المرور إلى التصويت لينقسم القادة العرب، وصوتت 12 دولة مع إدانة الغزو العراقي للكويت، مقابل امتناع 8 دول عن التصويت منها تونس والجزائر وليبيا واليمن والأردن وفلسطين، وتشير وثائق تلك القمة إلى أن خلافات حادة جرت بين الرئيسين الراحلين حسني مبارك ومعمار القذافي، الذي لم يكتف بتوجيه اتهامات عديدة لمبارك، وإنما ذهب أيضاً إلى انتقاد الشاذلي القليبي، حيث خاطبه قائلاً "يا سي الشاذلي ماذا لم تقل للرئيس مبارك إن قرارات الجامعة تتخذ بالإجماع"، وذلك قبل أن ينهره أمام الجميع، وأمام عدسات المصورين العرب والأجانب، قائلاً "أش... أش...".

ويرى مراقبون أن ما حصل في تلك القمة دفع القليبي إلى تقديم استقالته التي أعلنها في الخامس من سبتمبر من العام 1990، ليتولى عصمت عبد المجيد منصب الأمانة العامة لجامعة الدول

على عاتقه، منذ انتقال الجامعة العربية إلى تونس، محاولة ترميم التصديقات التي لحقت بالجامعة العربية، حيث جمع حوله فريقاً من أبرز النخب والكفاءات العربية منها الجزائري الأخضر الإبراهيمي، واللبناني كلوفيس مقصود، إلى جانب عدد من التونسيين منهم حمادي الصيد والمنجي الفقيه، وسعى إلى العمل من أجل تفعيل مؤسسات العمل العربي المشترك. غير أن الأحداث التي عرفتها المنطقة العربية كانت جسيمة، والانقسامات كانت عميقة جداً. وجد القليبي نفسه كأنه يحارب طواحين الهوى. اصطدم منذ البداية بتفسيرات مُناقضة لقرار نقل مقر الأمانة العامة للجامعة العربية من القاهرة إلى تونس، القرار الذي أثار جدلاً واسعاً آنذاك حول مدى قانونيته في الأساس.

نهج الحوار المستحيل

ينص ميثاق الجامعة العربية، في المادة العاشرة منه، على أن تكون القاهرة هي المقر الدائم للجامعة العربية، أما مجلس الجامعة من الممكن أن يجتمع في مكان غيره، وهو ما يعني أن أي قرار بنقل الجامعة من مقرها يعد غير صحيح، إلا إذا تم تعديل ميثاق الجامعة، وهي المادة التي استندت إليها بعض الدول العربية في ذلك الوقت لتبرير عدم اعترافها بشرعية نقل مقر الأمانة العامة من القاهرة إلى تونس. وجعلت تلك التطورات القليبي يصطدم بالعديد من العراقيل، منها رفض السلطات المصرية السماح بنقل كافة وثائق الجامعة العربية إلى المقر الجديد، أي تونس، في الوقت الذي امتنعت فيه بعض الدول الغربية عن التعامل معه كأمين عام جديد للجامعة العربية لأكثر من سبعة أشهر، حتى أن الولايات المتحدة عادت للتعامل مع الجامعة العربية بعد أكثر من عام على نقلها إلى تونس.

وعرفت ولاية القليبي كأمين عام العديد من الأحداث البارزة، منها تشكيل لجان لتتقبة الأوضاع في القرن الأفريقي وجنوب أفريقيا، ودعم التعاون العربي الأفريقي، وإدانة الإرهاب الدولي وفي مقدمته الإرهاب الصهيوني داخل الأراضي العربية المحتلة وخارجها، والسعي لتحقيق الأمن القومي العربي، وتنقية العلاقات العربية، والمؤتمر الدولي للسلام في الشرق الأوسط، والمقاطعة العربية لإسرائيل، ودعم الانتفاضة الفلسطينية، والترحيب بقيام الجمهورية اليمنية، والهجرة اليهودية إلى فلسطين وخطرها على الأمن القومي العربي. كما عرف عهده أيضاً عقد ثلاث قمم عربية عادية وست غير عادية، أبرزها قمة عمان التي عُقدت في العام 1987، والتي خرجت بعدة قرارات كان أهمها إنهاء المقاطعة مع مصر، وإعادة العلاقات الدبلوماسية معها، من منطلق أن الجامعة العربية تضم كل ما هو عربي، ليرُفَع في 2 يونيو 1989، علم مصر من جديد على مقر الجامعة العربية في تونس.

التي جمعت بين الرئيس الفرنسي الأسبق شارل ديغول، والمفكر الفرنسي أندريه مالرو وبقي القليبي مُحافظاً على صورة المثقف والمفكر رغم اقترابه الشديد من بورقيبة في أصعب فترة عرفتها تونس، أي فترة السبعينات التي شهدت فيها البلاد العديد من الاضطرابات السياسية، والاحتجاجات النقابية والتحركات الاجتماعية، لينتقل فجأة إلى الغام السياسة العربية بإبعادها الإقليمية والدولية في مرحلة اتسمت بالغليان، حيث تولى الأمانة العامة للجامعة العربية خلفاً للمصري محمود رياض الذي استقال من منصبه في مارس 1979. ويتولى هذه المسؤولية أصبح القليبي أول أمين عام للجامعة العربية يحمل الجنسية التونسية، ليبدل بذلك في دائرة الضوء، خاصة وأن توقيت توليه هذه المهمة جاء وسط صراعات عربية لافتة، تخللتها العديد من الانقسامات التي أثرت كثيراً على مبادئ العمل العربي المشترك، ببروز جبهات عربية منها جبهة الرفض، التي غذتها مواقف سياسية عالية السقف تردد صداها من بغداد في عهد الراحل صدام حسين، إلى طرابلس الغرب في عهد معمر القذافي، مروراً بتطورات القضية الفلسطينية في عهد الرئيس الراحل ياسر عرفات. وأخذ القليبي

والبحوث والقي الكثير من المحاضرات الأدبية، ليرسز كرجل ثقافة بامتياز، حيث كان عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ فبراير عام 1970، وقد صدرت له العديد من المؤلفات الأدبية والثقافية والسياسية منها "العرب أمام قضية فلسطين"، و"من قضايا الدين والعصر".

عشيرة عربية عاصفة

بدأت حياته تتغير نحو الإنغماس أكثر فأكثر في العمل السياسي، بعد أن تمكن، لفترة طويلة، من المحافظة على موقعه ككثقف ومفكر، إلى أن قبل في شهر مايو من العام 1958 تولى منصب المدير العام لمؤسسة الإذاعة والتلفزيون التونسية، ثم تكلّفه في العام 1961 بتأسيس وزارة الثقافة التي تولى حقيبتها إلى جانب حقيبة وزارة الإعلام، وذلك خلال فترة حساسة من تاريخ تونس.

وفتحت تلك المهام الباب أمام القليبي للاقترب أكثر فأكثر من الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة، الذي عينه مديراً لديوانه الرئاسي، حيث

كان يرسم الخطوط العريضة للخطابات السياسية لبورقيبة، حتى أن الكثير من

تحدثوا في تلك الفترة عن "تجربة بورقيبة - القليبي"، ومقارنتها بالعلاقة

غيب الموت قبل أيام قليلة الشاذلي القليبي، رجل الثقافة الذي انغمس في السياسة حتى النخاع، إلى أن التهمته كواليسها قبل أن تحوله إلى دبلوماسي مُحكك، شارك في أبرز المحطات الثقافية والسياسية في تاريخ تونس الحديث. رحل القليبي بعد أن عاش أبرز الزعماء والقادة العرب الذين تركوا بصماتهم بين ثنايا صفحات التاريخ العربي المعاصر بحبائه المتلاحقة ورهاناته الحافلة بالتغيرات.

ورغم ابتعاده عن الأضواء خلال مسيرته الثقافية والسياسية والدبلوماسية على الصعيدين التونسي والعربي، فإن القليبي الذي وافته المنية عن سنن تناهز 94 عاماً، داخل منزله في قرطاج بالضاحية الشمالية لتونس العاصمة، كان مع ذلك شخصية جدلية أسالت حولها الكثير من الحبر في علاقة ببناء جامعة الدول العربية التي كان أمينها العام الرابع لمدة عشر سنوات مُتتالية.

وتعى أحمد أبو الغيط، الأمين العام الحالي لجامعة الدول العربية، القليبي، وأمر بتكسيك علم الجامعة حدادا عليه، كما توجه ببرقية عزاء لأسرة الفقيد وللشعب التونسي، لافتاً فيها إلى أن "الأمة العربية فقدت سياسياً عربياً مخلصاً، لعب دوراً مهماً في مرحلة استثنائية من تاريخ الجامعة العربية المعاصرة، فضلاً عن اضطلاع به بمهام سياسية كبيرة في بلده تونس".

واعتبر أبو الغيط أن القليبي "تمكن من الحفاظ على استمرارية عمل الجامعة العربية في ظل الظروف الصعبة التي فترت وأجهت العمل العربي المشترك في فترة توليه المسؤولية خلال عقد الثمانينات، وهو ما عزز من القدرة المؤسسية الكبيرة للجامعة العربية على البقاء والتكيف مع الأزمان، والاستمرار في خدمة الأمة مهما كانت الظروف".

عاشق الفلسفة واللغة العربية

شغل القليبي كرسي الأمين العام الرابع لجامعة الدول العربية، وكان أول أمين عام لها بعد انتقال مقرها من العاصمة المصرية القاهرة إلى تونس، في أعقاب تجميد عضوية مصر في الجامعة العربية، وقطع العلاقات معها بسبب توقيعها في 26 مارس 1979 معاهدة السلام المصرية - الإسرائيلية المعروفة باسم "اتفاقية كامب ديفيد" التي رعاها الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر. ولد في مدينة تونس العاصمة في سبتمبر عام 1925، وتلقى تعليمه الثانوي بالمدرسة الصادقية، ثم التحق بباريس ليوصل دراساته العليا في الآداب والفلسفة بجامعة السوربون، حيث حصل على الإجازة في اللغة والآداب العربية في العام 1947، ليعود بعد ذلك إلى تونس حيث عمل في مجال التدريس بالمعهد الثانوي أولاً، ثم تفرغ في العام 1957 للتدريس في الجامعة التونسية. وقد شارك القليبي في تحرير معظم الصحف والمجلات التونسية، ونشر العديد من المقالات السياسية

تونس تعرف دور القليبي التحدي وبصماته المبكرة على مجالي الإعلام والثقافة، وهو الذي شارك في تحرير معظم الصحف والمجلات التونسية، ونشر المقالات السياسية وألقى المحاضرات، وشغل منصب المدير العام لمؤسسة الإذاعة والتلفزيون، قبل أن يؤسس وزارة الثقافة ويتولى حقيبتها إلى جانب وزارة الإعلام



مهمة القليبي لم تكن يسيرة، فقد بقي يصطدم بالعراقيل، التي كانت بدايتها رفض السلطات المصرية السماح بنقل كافة وثائق الجامعة العربية إلى المقر الجديد في تونس، وامتناع بعض الدول الغربية عن التعامل معه كأمين عام جديد للجامعة العربية لفترة طويلة لاحقة

من بيان استقالة القليبي

تعتبره الأمة قضيتها المركزية. واليوم، دولة الكويت. ومن حق الكويت علينا، اليوم، أن نكون إلى جانبها. كما أن من حق المملكة العربية السعودية علينا، أن نشد أزرها في ما تعتقد أنه خطر، يهدد أمنها. ولكن، من حق العراق، أيضاً، علينا، ألا نتركه عرضة لأشترس عدوان جماعي اجنبي، لا يهدف إلى الذود عن الشرعية الدولية، بل إلى مارب معروفة، حاجات في نفوس ال يعقوب. إن جامعة دولنا، تواجه، اليوم، انقساماً خطيراً، بسبب ما حدث في الكويت، ولأن الدماء يوشك أن يكون أشد من الدماء، بل يخشى أن يكون أشد قاتلاً، إذ إن الدماء يهد، اليوم، المنطقة كاملة، وكذلك القضية المركزية، قضية الشعب الفلسطيني، والانتفاضة المجيدة الباسلة، وقضية لبنان الجريح، التي تراجعت في سلم الأولويات العربية والعمل العربي المشترك، ولم تعد تحظى بأي اهتمام.